

النثر العربي في نصف قرن

الرأى الشائع بين المحافظين من أهل الأدب العربى وأصحاب العلم به : أن النثر أيسر من الشعر وأن اصطناعه شىء سهل لا يكلف صاحبه عناء ولا مشقة ، وهم من هذه الناحية يقدمون الشعر على النثر ، ولهم فى ذلك مباحث طوال وكلام كثير ، تستطيع أن تلهو به إذا نظرت فى كتاب العمدة لابن رشيق وما يشبهه من الكتب . وما أظن أن رأى الأدباء تغير فى هذا الموضوع . فهم ما يزالون يعتقدون أن الشعر أعسر من النثر وأبعد منه متاعاً ، ثم ما يزالون يعتقدون أن النثر أقدم من الشعر وجوداً ، وهم معذورون فظواهر الأشياء كلها توهم ذلك وتحمل على الجزم به .

فالنثر مطلق لا قيد فيه ، والشعر مقيد بالوزن والقافية ، والنثر مشبه فى إطلاقه لكلام الناس فى حياتهم اليومية وحوارهم المألوف . وإذن فالناس يتكلمون نثراً ، وهم يتكلمون قبل أن يشعروا ، وهم لا يجدون مشقة فى الكلام ، وهم يجدون

في نظم الشعر مشقة وعناء ، وإذن فالنثر أقدم من الشعر وأيسر وأدنى منالا . ومن هنا يقسم مؤرخو الآداب العربية كلام العرب إلى منظوم ومنثور ومسجوع ، وهم يرون أن النثر كان في العصور القديمة أكثر من الشعر ، ولكن ما حفظ من قديم الشعر أكثر جداً مما حفظ من قديم النثر ، وتعليل هذه الظاهرة لا عسر فيه فالشعر أشد عسراً من النثر في الانشاء ولكن الشعر أدنى إلى الحافظة وأسلس لها قياداً من النثر ، أليست القيود التي تأتيه من العروض والقافية تقربه من الحافظة وتجعل في استظهاره لذة وراحة لانجدهما في استظهار النثر ؟ فإذا كان ما روي من نثر العرب قبل الاسلام قليلاً فليس ذلك لأنهم لم ينثروا بل هو لأنهم لم يكونوا يكتبون ، ولأن حافظهم لم تكن تطاوعهم إلى حفظ النثر واستظهاره فضاع نثر العرب الجاهلين إلا أقله ، وبقى شعر العرب الجاهلين إلا أقله . كذلك كان يقول القدماء ، وكذلك ما يزال يقول المحدثون ولكن شيئاً من التفكير والنظر في آداب الأمم المختلفة يضطرنا إلى أن نعدل عن هذا الرأي القديم ، فمن العجيب أن تتفق الأمم كلها على أن تحفظ من شعرها القديم أكثر مما تحفظ من نثرها في عصورها الأولى ، ومن العجيب أيضاً

أن تتفق الأمم كلها في ضعف الذاكرة عن النثر وقوتها على الشعر . ومن العجيب بعد هذا وذاك ألا تضعف ذاكرة هذه الأمم إلا عن النثر القديم ، فأما النثر الذى يظهر بعد أن تبلغ الأمة من الرقى العقلى والمدنى طوراً ما فإن ذاكرتها تقوى عليه وتهض باستظهاره كما تقوى على الشعر وتستظهره . الحق أن الأمم إذا لم ترو شيئاً من نثرها القديم فليس لذلك سبب إلا أنها لم يكن لها نثر فى أطوار حياتها الأدبية الأولى ، وإذا روت كثيراً من شعرها القديم فلأنها كان لها شعر فى أطوار حياتها الأولى هذه ، أى أن الشعر أسبق إلى الوجود من النثر ، وأنه أيسر منه وأدنى منالاً . وأنت إذا نظرت فى تاريخ الأمم القديمة والحديثة ، وإذا نظرت فى حياة الأمم التى لم تكد تتحضر بعد فسترى أنها كلها تسبق إلى الشعر ولا تهتدى إلى النثر ولا تظفر به إلا بعد زمن طويل وجد غير قليل ورقى فى الحضارة ، وتقدم فى الحياة العقلية لا بأس بهما . تجد ذلك عند اليونان وتجده عند الرومان ، وتجده عند العرب وتجده عند الأمم الأوربية الحديثة .

وحينما وجهت فى القبائل التى لم تستقر بعد فسترى كلاماً منظوماً ، له أوزانه وقوافيه دون أن نجد لها هذا النثر الذى

يظن رجال الأدب أنه أقرب من الشعر منالاً . ذلك أن النثر ليس أقرب من الشعر منالاً ، في حقيقة الأمر ، ولعل حظه من العصر ليس أقل من حظ الشعر إن لم يكن أكثر منه . فالنثر لغة العقل والشعر لغة الخيال ، والخيال أسبق إلى النمو في حياة الأفراد والجماعات من العقل ، خيال الصبي والشاب أقوى من عقله وخيال الجماعات غير المتحضرة أقوى من عقلها ، فليس عجيباً أن يتكلم الخيال قبل أن يتكلم العقل وليس عجيباً أن يوجد الشعر قبل أن يوجد النثر ، وليس عجيباً أن يكون الشعر أيسر تعاطياً وأدنى تناولاً من النثر . فالخيال إن قيد بالوزن والقافية حين يتكلم فهو لا يتقيد بشيء آخر ، هو حرٌ طلق يمضي حيث يشاء ويصور الأشياء كما يشاء ، لا كما تشاء الأشياء أو كما تشاء الطبيعة ، أما العقل فقد يطلق نفسه من قيود الوزن والقافية ولكن ما أثقل القيود والأغلال تأخذه وتعوقه عن الحركة ولا تأذن له بالتقدم إلا في بطءٍ وأناة ، هو لا يطير ولا يحسن أن يطير ، وهو لا يعدو ولا يستطيع أن يعدو ، فإذا حاول الطيران أو العدو فليس هو العقل الخالص وإنما هو العقل قد غلب عليه الخيال ، هو لا يطير ولا يعدو ولكنه لا يسعى في هدوء ،

وهو لا يصور الأشياء كما يشاء ولكنه يقبل صورها كما هي، هو مقيد والخيال مطلق، وهو بطيء والخيال سريع، فليس عجيباً أن يتأخر نموه عن نمو الخيال، وليس عجيباً أن يكون إنتاجه أعرس وأقل من إنتاج الخيال، وليس عجيباً آخر الأمر أن يكون النثر الذى هو لغة العقل أحدث وجوداً من الشعر الذى هو لغة الخيال ولكن مالى ولهذا كله؟ وأين أنا من الموضوع الذى أريد أن أكتب فيه، وهو النثر العربى فى هذا العصر الذى نحن فيه؟ وما هذه المقدمات الطويلة؟. أليس القارىء يحس أنى أطيل عليه وأثقل فى غير نفع ولا جدوى؟ بلى، ولو كنت من أصحاب الخيال لما أطلت ولا أثقلت ولا احتجت الى مقدمات فالخيال كما قلنا خيف حر يأتى حيث شاء وكيف شاء ولكنى أريد أن أكتب نثراً، أى أريد أن أحمل عقلى على أن يتحدث إلى عقل القارىء، وقد قلنا إن العقل رزين بطيء لا يطير ولا يعدو، ولكنه يسعى فى أناة فليسع القارىء معى فى أناة أيضاً، ولينتقل معى من كل هذه المقدمات الى حيث أريد أن أنتقل به. ليلاحظ أن هناك صلة قوية جداً بين الحياة العقلية وحظ النثر من القوة والضعف، من الرقى والانحطاط، من البرد والحر والفتور. متى بلغ النثر اليونانى أقصى ما استطاع أن يبلغ

من الرقى؟ في عصر سقراط وأفلاطون . ومتى بلغ النثر العربي أقصى ما كان يستطيع أن يبلغ من الرقى؟ في عصر ابن المقفع والجاحظ وأشباههما . أى أن رقى النثر كان عند اليونان والعرب رهيناً برقى الحياة العقلية وانبساط سلطان الفلسفة على العقول وهو كذلك عند الرومان، وهو كذلك في أمم أوروبا الحديثة، وهو كذلك في مصر . إن الذين يريدون أن يؤرخوا الآداب العربية في هذا العصر الحديث خليقون ألا يقطعوا الصلة بين الأدب والعلم، وألا يظنوا أن الحياة الأدبية تستطيع أن تستقل استقلالاً تاماً عن الحياة العلمية، بل هم خليقون أن يعتقدوا أن ليست هناك حياة أدبية وحياة علمية، وإنما هناك حياة عقلية تظهر مرة في شكل أدبي هو النثر الفني وتظهر مرة أخرى في شكل علمي، هو هذا النثر الذي نجده في كتب العلم الخالص، أقول إن الذين يدرسون تاريخ الأدب في هذا العصر الحديث خليقون أن يقدرُوا تأثير العلم والفلسفة في هذا الأدب وفي النثر بنوع خاص، فليس يمكن أن يكون من أثر المصادفة وحدها أن تطرد الصلة بين الرقى العلمي الفلسفي ورقى الآداب عامة والنثر منها بنوع خاص، وفي الحق أنك حين تقرأ هذا النثر الذي كان يكتب في الشرق

العربي في أول القرن الماضي تشعب بالفساد الفني الأدبي وحده ، ولكذك ستشعر قبل هذا بخلو ما تقرأ من المعنى القيم وبإعدام هذه العقول التي يترجم عنها هذا النثر ، وستشعر بعد هذا بما ينشج عن إعدام هذه العقول وفقرها من الفساد الفني الذي يتصف به النثر العربي في كل العصور التي ضعفت فيها الحياة العقلية الفلسفية . لا يخدعك ما ترى من هذه الزينة اللفظية والبهرج البديعي والبياني ؛ من سجع وتكلف في الاستعارة والمجاز في التشبيه والكناية والتورية وما إليها ، فليس هذا كله إلا تكلف المعدم البائس يريد أن يظهر مظهر الغنى المثرى . إنما مثل هؤلاء الكتاب الذين يتكلفون ألوان البديع والبيان في غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة أعوزها الجمال الفطري فهي تتكلف الزينة ، وأعوزها حر الحلى فهي تخدع الناس بهرجه وزائفه ، ومن هنا تستطيع أن تلاحظ أن النتيجة القيمة التي جاء بها القرن الماضي في النثر العربي إنما هي إطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية ، وهو لم يطلقه من هذه القيود عبثاً وإنما أطلقه منها لأنه منح هذا الروح القوي الذي مكّنه من أن يستقل بنفسه ويستهي العقول والألباب قليلاً قليلاً ، وهذا الروح القيم الذي بث الحياة في النثر العربي وألقى

عنه هذه اللغائف البالية التي كانت تثقله وتعوقه عن الحركة إنما هو المعنى، وهذا المعنى إنما جاء من الحياة العقلية التي أنشطها العلم والفلسفة في القرن الماضي. وليس أدل على صدق ما نقول من أنك تنظر فترى انطلاق النثر من هذه القيود وبرأته من هذه الأغلال لم يأتيا عفواً ولم يتما فجأة وإنما كانا رهينين بوجود الصلة ونموها بين الشرق والغرب أى بين العقل المعدم والعقل الغنى. مؤلم جداً هذا الشعور الذى تجده حين تقرأ الجبرقى وأمثاله من الذين كانوا يكتبون فى أول هذا العصر الحديث. ولكن توسط القرن الماضي وقرأ ما كان يكتب فى مصر والشام فستجد شيئاً من اللذة يشوبه شيء من الألم كثير، لأنك تقرأ كلاماً يدل على شيء، ويريد بنوع خاص أن يدل على شيء، ولكنه لا يكاد يبلغ ما يريد لأن حظه من المعنى قليل من جهة لأنه لم يستطع بعد أن يخلص من تلك القيود والأغلال من جهة أخرى. ثم صل إلى الثلث الأخير من القرن الماضي وقرأ ما كان يكتب فى مصر والشام أيضاً فسيعظم حظك من اللذة وستشعر بشيء من الألم، ولكنه ليس هذا الألم الذى تجده حين تشهد البؤس والاعدام وإنما هو نوع آخر من الألم تجده حين تشهد التكلف والتضع، وحين نحس أن هذه المعانى،

لو اطلقت من قيودها وأرسلت على سجيتهما لأحدثت
فى نفسك من البهجة واللذة مالا تستطيع أن تحده وهى
مثقلة بما يحيط بها من لفائف البديع والبيان .

كل هذا يدل على أن النثر العربى قد كان ثقيلا بغيضا
- أول القرن الماضى - لأنه كان قليل الحظ من الحياة العقلية
لا أثر فيه لشخصية الكاتب ولتفكيره ، أو قل لأنه كان فقرا
كله ثم أثرى العقل الشرقى شيئا فشيئا فدبت الحياة فى النثر
بمقدار هذه الثروة العقلية ، وأخذ هذا النثر كلما أحس حياته
وقوته يجتهد فى أن يخلص نفسه من قيود الفقر وأغلال
البؤس ، حتى انتهى إلى حيث هو الآن من حرية وانطلاق .
فالنثر إذن مدين فى هذا العصر بحريته وانطلاقه ورقه الفنى
كما كان مدينا فى غير هذا العصر بهذه الأشياء كلها للعلم والفلسفة ،
وما أحدثا من تنشيط العقل ورده إلى اليقظة بعد النوم وإلى
الحركة بعد الجمود . ومن الحق على الكتاب المجيدين أن يعرفوا
ما للعلماء والفلاسفة عليهم من فضل وأن يقدرُوا ما للذين
نقلوا إليهم العلم والفلسفة عندهم من يد ، فلو لا المترجمون فى العصر
العباسى ما عرفت العربية نثر ابن المقفع والجاحظ ، ولو لا
المترجمون فى هذا العصر الحديث ما عادت للنثر العربى حياته

القوية النشيطة التي نريد أن نتحدث عنها بعض الحديث .
أخشى أن أكون مسرفاً بعض الشيء . فان حياة النثر
العربي في هذا العصر لم تأت كلها من قبل العلم الحديث
والفلسفة الحديثة ، وإنما جاءت من قبلهما ومن قبل شيء آخر
هو الأدب العربي القديم في عصوره الراقية . فقد كان الكتاب
وأهل العلم في أوائل القرن الماضي يجهلون أو يكادون يجهلون
قديم العرب وما كان لهم من شعر جيد ونثر رائع ، وكان الذين
يلبسون منهم بهذا الأدب القديم لا يكادون يفهمون ما يلبسون
به على وجهه ، وكانوا لا يحاولون أن يتأثروه أو يحتذوه .
أما الآن فقد تغير هذا كله وعرف الأدب العربي القديم .
وعادت الحياة إلى الشعر العربي والنثر العربي ، فنحن نقرأهما
ونحفظهما وننقدهما وتأثرهما ولهذا كله حظ عظيم من التأثير
في وجود ما نكتب من نثر وما ننظم من شعر . ولكن ما الذي
رد الحياة إلى الأدب العربي القديم ؟ وما الذي ذكر كتاب
الشرق وشعرائه بهذا الأدب وما الذي حملهم على قراءته
وروايته ونقده واحتذائه ؟ إنما هو هذا الروح العلمي الذي
جاءنا من العرب ونقله إلينا المترجمون . هذا الروح العلمي هو
الذي أنشط العقول ، وحملها على أن تفكر في القديم والحديث

وعلى أن تغذو نفسها بهما معاً . وإذن فأننا لم أسرف ولم أتجاوز الحق حين رأيت أننا مدينون بحياة النثر لهؤلاء المترجمين الذين أوجدوا الصلة بين الشرق النائم والغرب اليقظ . ولقد أحب أن أعرف حظ البلاد الشرقية في إيجاد هذه الصلة الخصبة القيمة بين الشرق والغرب فلا أجد في ذلك مشقة ولا عسراً ، فالبلاد التي ردت الى الشرق حياته العقلية والأدبية في هذا العصر . هي بعينها البلاد التي أحيت الشرق في العصور الأولى حياة قوية مطردة لا عارضة ولا متكلفة . نعم لم يستمد الشرق العربي حياته قديماً من شمال أفريقية ولا من جزيرة العرب بل لم يستمدّها من العراق الا بمقدار ، وإنما استمد حياته الصالحة الخصبة في نظام واطراد من مصر والشام . من هذين القطرين أزهرت الحضارة الشرقية الخاصة ، ومن هذين القطرين انبعثت الحضارة إلى أطراف الشرق ، وفي هذين القطرين أنثرت الحضارات الأخرى التي نشأت من غيرهما وسيطرت على الشرق حيناً طويلاً أو قصيراً كحضارة اليونان والرومان والعرب ، وإلى هذين القطرين لجأت الحضارات الشرقية وغير الشرقية حين ضاقت بها البلاد الأخرى فوجدت فيهما ملجأً أميناً ومأوى حصيناً نعم وفي هذين القطرين نشأت

النهضة الشرقية في هذا العصر الأخير : نشأت في مصر
ونشأت في الشام أوائل القرن الماضي ، واستبق القطران فيها
استباقاً عظيماً حتى أصبح من العسير أن نحدد الحظ الذي
ظفر به كل منهما في هذه النهضة ، فبينما كان أمراء مصر من
الأسرة العلوية يجدّون في إنهاض مصر وتقوية الصلة بينها
وبين الغرب . وإرسال الوفود العلمية إلى أوروبا واستقدام
العلماء الأوربيين إلى مصر ، وإقامة المعاهد العلمية المختلفة . ونقل
الكتب في ألوان العلوم والفنون كان المسيحيون من أهل
الشام يتصلون بأوروبا اتصالاً قوياً لأسباب مختلفة : منها
السياسة ومنها الدين ومنها العلم . وكانت تحدث في بلاد الشام
حركة مشبهة جداً لهذه الحركة التي كان يستحدثها الأمراء في
مصر ، وكانت تنبع عن هاتين الحركتين في مصر والشام
نتيجة واحدة : هي نشاط العقل الشرقي واستئنافه الحركة
والحياة . ولكن من الحق أن نلاحظ أن مظهر النهضة كان
في مصر علمياً عملياً أو أقرب إلى العلم والعمل منه إلى أي
شيء آخر ، بينما كان مظهر الحركة في الشام أقرب إلى الأدب
واللغة ، وأدنى اليهما منه إلى أي شيء آخر . فانت تستطيع أن
تجد في مصر في أثناء القرن الماضي العلماء الذين تفوقوا في

الطب والرياضة والطبيعة ، ولكنك لا تكاد تظفر فيها بأديب يعدل هؤلاء الأدباء الذين كثروا في الشام . وأنت نستطيع أن تجد في الشام أدباء تفوقوا في الأدب واللغة واستحدثوا فيهما الجديد النافع ، ولكنك لا تجد في الشام مثل ما تجد في مصر من العلماء . ومهما يكن من شيء فقد أرادت ظروف الحياة التي أحاطت بالقطرين أن يلجأ النشاط السوري في الأدب واللغة إلى مصر منذ أواخر القرن الماضي ، وأن تكون القاهرة مستقر الحركة العقلية القوية في الشرق كله ، فانتقل أدباء السوريين وعلماءهم إلى مصر ووجد نشاطهم فيها ما لم يكن يجده في الشام من القوة والتشجيع فأثرت ثمرته الباقية الخالدة وأصبح النثر العربي الآن أصدق مزاج التأم فيه الروحان السوري والمصري التاماً لا سبيل إلى تفريقه . ولست أقول هذا الكلام عبثاً ، ولا أطلقه من غير دليل ، فليس من شك في أن الصحافة صاحبة الحظ الموفور في نشر الأدب والعلم وإنشاء النثر الحديث ، وأنا حين أذكر الصحافة لا أريد بها اليومية دون الأسبوعية أو دون الشهرية إنما أريد الصحافة كلها ، والصحافة سورية مهما يكن من شيء ، ولعل أحداً لا يستطيع أن يناقش في أن الصحافة المصرية

الخالصة حديثة العهد بالوجود وأنها على ما بلغت من قوة الأيد وشدة الأسر في هذه الأيام لم تستطع أن تسبق الصحافة السورية ولا أن تتفوق عليها .

وحسبنا أن نلاحظ أن الصحافة المصرية إن كانت قد بلغت من القوة في هذه الأيام حظاً موفوراً ، فهي بعد لم تستطع أن تتجاوز السياسة ، وهي إن أثرت في الأدب فمن طريق السياسة ومن السعي إلى السياسة ، فأما الصحافة الأدبية والعلمية الخالصة التي تناو لها لتقرأ فيها فصول الأدب ، أو مبحثاً من مباحث العلم ليس غير ، فما زالت إلى الآن سورية وهي ترحب بضيوفها من المصريين وغير المصريين ، وتجذب في تضيفها إليهم حياة وقوة ، ولكنها على كل حال سورية .

والآن وقد ألمنا بأصول هذه النهضة النثرية العربية فهل نستطيع أن نخصصها تشخيصاً صحيحاً وأن نصل إلى المميزات التي تفرق بين هذا النثر الذي نكتبه الآن والنثر الذي كان يكتب منذ خمسين سنة ؟ أعتقد أن ذلك ليس عسيراً فقد كان النثر منذ خمسين سنة كما قلت لك آنفاً متوسطاً بين حالين فيه معنى قيم يحدث في نفسك ما تطمح إليه من لذة علمية وفنية ولكنه

لم يخلص من تلك الأغلال والقيود التي كان يرسف فيها النثر القديم . فهو مقيد بالسجع متكلف للاستعارة وألوان البديع والبيان ، ولكنه لم يكن يتكلف هذه الألوان بحكم الفقر والاعدام ، وإنما كان يتكلمها بحكم العادة ولم يكن بدٌّ في ذلك الوقت الذي أحسنَّ العقل الشرقي فيه حرّيته وشخصيته من أن تشب الحرب ضرراً بين المذهبيين المختصمين دائماً في النثر : مذهب أصحاب القديم ومذهب أصحاب الجديد . وقد شبت بالفعل هذه الحرب وكان السوريون هم الذين شبوها لأنهم كما رأيت أصحاب الصحافة ، ولأنهم كما رأيت أقرب إلى النشاط في الأدب منهم إلى النشاط في غيره ، وأنت تعلم أن الصحفي مضطر بحكم صناعته وما تستتبعه من العجلة والتحدث إلى الجمهور إلى أن يتحلل من هذه القيود البديعية ، ويتخلص من هذه الأغلال الفنية . وكذلك فعل الصحفيون من السوريين وكذلك فعل الصحفيون المصريون أيضاً ، واستطاع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سليمان أن يكتبوا فصولاً لا تخلو من آثار القديم ؛ فيها السجع وفيها تكلف البديع والبيان ، ولكنها بعيدة كل البعد عما كان يكتب في أوائل القرن الماضي وفي منتصفه أيضاً ، فيها حرية لفظية

ومعنوية ظاهرة ، وفيها اجتهاد في اختيار الحر من اللفظ واجتناب المبتذل، وفيها طموح إلى الجديد لم يكن يألفه الكتاب المصريون من قبل . وكثر انتشار المباحث العلمية الحديثة في مصر والشام بفضل المجلات والصحف والكتب ، واشتدت حركة إحياء الأدب العربي في القطرين وقرأ الناس العلم والأدب الغربيين فنشطت عقولهم وقرأوا الأدب العربي القديم فاستقامت ألسنتهم وأقلامهم . ولم يكد ينتهي القرن الماضي حتى كان الشعر قد خلص من أغلال البديع خصوصاً تاماً ، وحتى كان الجهاد بين القديم والجديد في النثر قد تطور تطوراً غريباً فأصبح أنصار القديم لا يستمسكون بركاكة الجبرتي ولا يحرصون على بديع ابن حجة وإنما يستمسكون بقديم بغداد وغيرها من أمصار البلاد العربية في العصر العباسي ، ويستمسكون بصحة اللفظ من الوجهة اللغوية وبرامته من العامة والابتذال . وأصبح أنصار الجديد لا يتفرون من البديع والبيان ، فقد استراحوا من البديع والبيان وإنما يتفرون من الاغراق في هذا الأدب العربي القديم ويطمحون إلى تقليد الأدب الغربي الحديث واصطناع الألفاظ الأوربية الأعجمية . اشتد هذا الجهاد بين أنصار القديم والجديد في العقد الأول من

هذا القرن، وكان السوريون بنوع خاص من أشد الناس نصراً
للجديد، وكان شبوخ مصر هؤلاء الذين توسطوا بين الأزهر
والمدارس المدنية لأنهم تخرجوا من دار العلوم من أشد أنصار
القديم وكان العلم يزداد انتشاراً والشباب يزداد إمعاناً في
الاتصال بأوروبا والتغذى بما فيها من علم وأدب . ثم كانت
حركة وطنية في مصر قوية عنيت بها الصحف واندفعت فيها
اندفاعاً شديداً وكان الشباب قوة هذه الحركة، ومن الذي يستطيع
أن يأخذ الصحف المندفعة في حركاتها السياسية بملاحظة القديم
وانتقام الألفاظ؟ ومن الذي يستطيع أن يأخذ الشباب الثائربأن
يتقيد بالقاموس أو لسان العرب؟ ولازماً تجاوزت هذه الحركة
السياسية مصر وكانت الثورة في قسطنطينية وأعلن الدستور
العثماني وردت الحرية إلى الأقطار العربية العثمانية فكان لهذا
كله أثر قوى في الأدب العربي ، وفي النثر منه بنوع خاص،
وكان هذا كله صدمة عنيفة لأنصار القديم من الكتاب
والشعراء . ذلك لأن الحركات السياسية نقلت الكتابة
من بيئتها القديمة إلى بيئات جديدة ما كانت لتكتب لولا هذه
الحركات ، فقد كانت الكتابة - كما كان العلم - حظاً مقصوراً
على بيئة خاصة من الناس ثم أصبحت الكتابة كما أصبح العلم

حظاً شائعاً في الناس جميعاً . ومن ذا الذي يستطيع أن يأخذ
الناس جميعاً بالتحرج فيما يكتبون والتقيد بمعاجم اللغة
وأساليب القدماء ؟ وكانت الحرب العظمى فاشتد الاتصال
والمخالطة بين الشرق والغرب وانهيا إلى حد لم يعرف من قبل
ثم انتهت هذه الحرب وتبع عنها نتائج من هذه الثورة السياسية
العامة في الشرق العربي كله ، وأثر هذا في حياة الناس على
اختلاف فروعها فلم يكن بد من أن يؤثر في الأدب أيضاً ، وفي
النثر بنوع خاص . الحق أن الحرب ونتائجها وقفت نمو
الحركة الأدبية في الشرق العربي ، وأن هذه الثورة السياسية
شغلت الناس عن الحياة الأدبية والعلمية حيناً وقصرت جهودهم
على السياسة ولكن هذه السياسة نفسها قد تركت في النثر
العربي آثاراً لن تمحى قبل عصر طويل ، جعلته حاداً عنيفاً
واستحدثت فيه فنوناً مختلفة وأساليب متباينة من الطعن
والخصومة لم يعرفها النثر العربي من قبل . ثم لم تلبث السياسة
نفسها أن استحدثت حياة أدبية جديدة في النثر ظهرت منذ
حين وآتت ثمراً طيباً ، ولكنها لم تصل إلى غايتها . ومن
الحق أن نقول إن مصر قد اقتصت بهذه الحركة . ولكل
شيء خير وشره وقد كان للخصومة الحزبية في مصر شروطها

وآثامها ، ولكن لها في الوقت نفسه حسناتها ومنافعها ، وإنما نعى منها بالحسنات والمنافع الأدبية .

وأول ما نلاحظ من هذه الحسنات أن الجهاد اشتد بين الأحزاب فاضطرها إلى أن تتنافس في اكتساب الجمهور وكانت الصحف أجل الأدوات لهذا التنافس خطراً ، وكان الأدب من أهم الأسباب التي اتخذتها الصحف وسيلة إلى التنافس . أخذت الصحف تنشر الفصول الأدبية تقلد في ذلك صحف أوروبا ، ولكنها تخدع الناس وتستدرجهم إلى قراءة ماتكتب في السياسة ، وما هي إلا أن أصبحت الكتابة في العلم والأدب نظاماً تحرص عليه كل صحيفة تقدر لنفسها كرامة صحفية ، وتريد أن يحفل بها الجمهور . وأصبح الجمهور نفسه لا يقدر الصحف إلا إذا قدمت له مع الفصول السياسية فصولاً في العلم والفلسفة والأدب والفن . والصحف تتجاوز مصر وتنبث في الأقطار العربية كلها ، فما أسرع ما تتأثر هذه الأقطار بهذه الفصول الأدبية . فالأدب وحده هو الذي يجمع بين البلاد العربية المختلفة جمعاً حراً بريئاً منتجاً بعد أن فرقت بينها السياسة .

ولست أذكر هذه الفنون النثرية الهزلية التي استحدثتها

السياسة في الصحف الأسبوعية ، فلهذه الفنون قيمتها ولكنها ليست من النثر الذي نحن بازائه وهو النثر الأدبي الفصيح . هذا النثر الأدبي الفصيح ان امتاز الآن بشيء فهو يمتاز بأن الخصومة فيه بين أنصار القديم والجديد قد انتهت أو كادت تنهى إلى قدر لن يعدوه المختصمون . ذلك أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصة كل الحرص على شيئين لا ترضى بدونهما : الأول أن يقدم إليها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقي الأسلوب بريء من الابتذال حر من أغلال البديع والبيان ، والثاني أن يكون هذا النثر على كل ما قدمنا ملائماً لذوقها الجديد وميوهاً لجديدها ، قما في معناه كما هو قيم لفظه ، حر في معناه كما هو حر في لفظه أيضاً ، ومعنى هذا أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون العربية الآن تحرص في حياتها كلها على أمرين : تحرص على قديمها لأنها لا تريد أن تمحو شخصيتها وتحرص على الجديد لأنها لا تريد أن تكون أقل من الغرب علماً ولا أدباً ولا حضارة . وهذا النثر الذي قدمت وصفه هو وحده الملائم لهذا الذوق الجديد وهذه الآمال الجديدة . ومع ذلك فللقديم أنصار وللجديد أنصار ، ولكن أولئك وهؤلاء قلة ضئيلة في حقيقة الأمر ، لا يكاد

يعبأ بها أحد ، أولئك لا يزالون يستمسكون بالصناعة اللفظية ،
ويسرفون فيها إسرافاً شديداً ، فينصرف عنهم الناس لأنهم
لا يفهمونهم ، ولا يجدون عندهم ما يريدون . وهؤلاء يزدرون
الألفاظ ويفنون شخصيتهم الشرقية العربية في كتاب الغرب
فينصرف عنهم الناس ، لأنهم لا يجدون عندهم هذه الشخصية
الشرقية العربية ، التي يكلفون بها ويناضلون في سبيل تحقيقها
وإكراه أوربا على أن تعترف لها بالوجود .

أظنك تعفيني من أن أتجاوز هذا القدر العام إلى التحدث
إليك عن شخصيات الكتاب النافرين في مصر وغير مصر
وآثار هذه الشخصيات في أساليبهم النثرية فقد أطلت
وأسرفت في الإطالة ولو ذهبت أحدثك عن شخصيات
الكتاب وأساليبهم لما فرغت الآن ، وما أشك في أن
«المقتطف» حريص على أن أفرغ .

البؤساء

كنت أريد أن أحدثك اليوم عن شاعر عربي قديم .
ولكنى وجدت أمامى شاعراً عربياً حديثاً، فآثرت أن يكون
هذا الشاعر موضوع حديث هذا الأسبوع .

الحق أنى وجدت أمامى شاعرين : أحدهما فرنسى هو
فيكتور هوجو . والثانى مصرى هو حافظ ابراهيم . ولكنى
لا أريد أن أتحدث عن فيكتور هوجو اليوم . لأن كتاب
البؤساء ليس من كتبه القيمة ، التى تستحق الإعجاب أو
تستعد لطول البقاء .

ليس البؤساء من هذه الآثار التى صدرت عن فيكتور
هوجو فشلت شخصيته القوية ونبوغه العظيم . وان كان من
كتابنا المصريين الذين يجهلون الفرنسية ولم يقرأوا فيكتور
هوجو إلا مترجماً إلى العربية أو الانجليزية من كتب منذ
أسابيع يزعم أن فيكتور هوجو ليس ذا قيمة ولا خطر .
ليس البؤساء من هذه الكتب التى نقرأها فنعجب بكاتبها ،

ونشر بأن له على نفوسنا سلطاناً وفي قلوبنا تأثيراً عظيماً ،
وإنما هو كتاب كغيره من الكتب فيه جودة وحسن ، وفيه
اطالة واملال ، فيه صحف قيمة ، وفيه ثروة لاتفيد . ولست
أدرى لم اختاره حافظ وكلف نفسه ألوان الجهد والعناء
في ترجمته ! فالحق أن شاعرنا قد تكلف جهداً عظيماً وعناء
شديداً في هذه الترجمة ، ولست أدرى لم اختاره ؟ بل ربما
كنت أدرى ، فقد أذكر أن قد كان البدع في أيام صباى
تكلف البؤس وانتحال سوء الحال . والافتنان في شكوى
الناس والزمان . كان ذلك بدعا في العقد الأول من هذا
القرن ، وكان حافظ يذيع هذا البدع ويروجه .

في هذا العصر اختار حافظ كتاب البؤساء ، فترجم منه
جزءاً . ولكن الأيام دارت دورتها ولم يتح لهذا المزاج
السيء المظلم أن يتأصل في النفوس أو يسيطر عليها . فلو أن
حافظاً أهمل البؤساء ولم يمض في ترجمته لما سأله سائل ،
ولا لامه أحد . ولكنه بدأ عملاً فأراد أن يتمه وهذا حق له
وواجب عليه ، وليس يخلو من نفع جم وخير كثير .

لأتحدث اليوم اذن عن فيكتور هوجو ، ولا عن كتاب
البؤساء . وإنما أتحدث عن حافظ وعن ترجمته لكتاب

البؤساء . ولست أخفى عليك أن هذا الحديث ليس بالسهل ولا باليسير ، فان لحافظ في نفسى مكانته العالية في نفس كل مصرى قرأ شعره الجزل ونثره المتين . وله في نفسى مكانة خاصة هي مكانة الصديق الذى أحبه وأجله وأطمئن إلى خلقه وأرتاح إلى حديثه العذب .

لحافظ في نفسى هاتان المكانتان ، فأنا متهم حين أثنى عليه ومكره لنفسى حين أنقده . ومع ذلك فمن حق كتابه على الثناء والاعجاب . فلست تقرأ في كتاب من هذه الكتب التى تصدر فى هذه الأيام أسلوباً أمتن ولا تركيباً أرصن ولا لفظاً أحسن اختياراً وأشد ملاءمة لمعناه واستقراراً فى نصابه مما تقرأ فى هذا الجزء من كتاب البؤساء .

ليس فى ذلك شيء من الاسراف أو الغلو بل هو دون ما أريد أن أقول . وماذا تريد أن تقول فى كتاب ظهر فى هذه السنة ولهذا الجيل ، فاذا قرأته استيقنت أنه لم يكتب فى هذه السنة ولا لهذا الجيل !

ماذا تقول فى كتاب لا تكاد تمضى فى قراءته حتى تشعر بأنه إنما كتب فى غير هذا العصر . كتب أيام كانت اللغة العربية بدوية جزلة لم تخلع بعد أسنمال البداوة ، ولم ترتد حلل

الحضارة ، أيام كانت لغة الصحراء يصنعها الحداة والماتحون !
أيام كانت لغة الأشداق الواسعة العريضة ، والشفاه الضخمة
الغليظة لا الأفواه الضيقة الظريفة ، ولا الشفاه الناعمة الرقيقة ،
ثم هو يصف بهذه اللغة البدوية عواطف حضرية ، ومعاني
حضرية . عواطف ومعاني نشأت في أوروبا وفي نفس
فيكتور هوغو ! يصف بلغة رؤوبة والعجاج وذى الرمة
خواطر كتاب الفرنسيين في القرن التاسع عشر !

ليس في ذلك إسراف ولا غلو ، فقد كنت أظنني أعرف
العربية وأستطيع أن أقرأ فيها كتابا ولا سيما من هذه الكتب
المعاصرة ، دون أن أحتاج إلى بحث كثير في القاموس . فلما قرىء
على البوساء عرفت أن من تواضع لله رفعه ! وأقسم لو لا هذا
الشرح الذي تفضل به حافظ على القراء لما تقدمت في قراءة
الكتاب إلا مع شئ غير قليل من المشمة والعناء . ولكني
لا أدري أمزية هذه أم نقيصة ؟ ولعلها مزية ونقيصة في وقت
واحد . مزية لأنها تدل على أن حافظاً قد وعى لغته وأحسن
الإلمام بها ، والانتفاع واستظهر . وعلى أنه قد كد وعنى نفسه
في تخير هذه الألفاظ الشاردة وتقييدها وحسن الملائمة بينها
وبين هذه المعاني والعواطف الحضرية المألوفة . وعلى أنه

حريص كل الحرص على أن يحتفظ للفتا العربية بروائها
القديم وجمالها البدوي التليد . وعلى أن يعصمها من السقوط
والاسفاف .

ونقيصة لأنها تكلف ولأنها عقبة تحول بين القارئ
وبين الفهم ، ولأنها لا تلائم روح العصر ، ولأنها لاتعين على
ما قصد اليه من نشر آراء فيكتور هوغو وإذاعة عواطفه بين
شعبنا المصرى الذى لا يعرف لغة رؤبة والعجاج منه إلا نفر
يحصون . ولقد كنت حافظاً فى ذلك فقال لى عملت للخاصة .
وكنـت أظن أنى من هؤلاء الخاصة ، فاذا بينى وبينهم أمد بعيد
وأحسب أن خاصة حافظ لا يوجدون إلا فى خياله .

أحمد لحافظ هذه اللغة الغريبة الجزلة ، لأنها تدل على عناء
وجهد عظيمين ، وأنكرها عليه لأنها تكاد تجعل هذا الجهد
غير نافع وهذا العناء غير مفيد . وما رأيك فى أنى أقرأ
الأصل الفرنسى فأفهمه بلا عناء وأقرأ ترجمته العربية فلا أفهمها
إلا كارهاً . ولست أتقن الفرنسية اتقاناً خاصاً ولا أجهل
العربية جهلاً خاصاً ، فكثير من الناس يفهمون البؤساء
بالفرنسية فهماً يسيراً ويفهمون البؤساء بالعربية فهماً عسيراً ،
ولقد قال لى أحد الكتاب المجيدين : أليس غريباً أن يكون

ابن المقفع أدنى الى افهامنا من حافظ !

أيسمح لى حافظ بعد هذا أن آخذه بعين عظيمين :
أسف جداً لأنى مضطر الى آخذه بهما ؟ فله علينا حق الانصاف
ولكن للعلم والنقد حقهما من هذا الانصاف أيضاً .
الأول أن ترجمته ليست كاملة ، فهو يلخص ولا يترجم .
ولست أريد أن أطيل فى ذلك وإنما ألفتة إلى أنه قد أهمل
الصفحة الأولى من الكتاب إهمالاً تاماً فلم يشر إليها بحرف
وهذا نصها :

« لعل القارىء قد أحس أن « مسيو مدلين » لم يكن الاوجان
فلجان ، لقد نظرنا فى أعماق هذا الضمير ، وقد آن أن نعبد
النظر فيه ، ولن تفعل ذلك دون أن ينالنا الاتفعال ، ويملكنا
الاضطراب ، فليس شيء أبعث للقلق فى النفوس من هذا
النوع من المشاهدة . ولن تستطيع عين العقل أن تجدد فى أى
مكان ضوءاً أخطف للبصر ، أو ظلمة أشد مما تجد فى الانسان
لن تستطيع هذه العين أن تثبت على شيء أدعى الى الخوف
وأشد تعقيداً ، وأكثر غموضاً وأبعد مدى فى الوجود منظر
أعظم من البحر . منظر السماء وفيه منظر أعظم من السماء ،
هو دخيلة النفس !

ولست محاولة انشاء هذه القصيدة ؛ قصيدة الضمير
الانسانى ولو بالقياس إلى رجل واحد ، ولو بالقياس إلى أشد
الناس ضعة . إلا محاولة صوغ القصائد القصيدة كلها فى
قصيدة واحدة أعلى مكانة فى الشعر وأدنى إلى الكمال . انما
الضمير هو النار المتأججة تسبك فيها الأحلام وهو الكهف
تختبئ فيه الخواطر الدنيئة المخجلة ، وهو العاصفة الجهنمية
تأوى إليها كل شياطين المغالطة ، وهو ميدان الجهاد بين
الشهوات .

تخطئ فى بعض الأحيان هذا الوجه الممتع ، وجه
الرجل المفكر ، وانظر ورايه . انظر فى هذه النفس ، انظر
فى هذه الظلمة . ان تحت هذا الصمت الظاهر لحرباً ضرورياً
قد اشتبكت فيها المردة كما فى « هو ميروس » ومعارك قد
التحمت فيها الثنائين والحيات ، وسحاباً من الأشباح كما فى
« ميلتون » ودخانا يصعد ملتويًا كما فى « دنتى » ، شئ مظلم
هذا الضمير الذى لا حد له ، والذى يحمله كل انسان فى نفسه
ويقىس به يائساً إرادة عقله ، وما فى حياته من عمل !

لقد صادف « التجيرى » فى يوم من الأيام باباً مخيفاً تردد
قبل أن يُلجّه ، فانظر أمامك فهذا باب مخيف أيضاً ، تردد

أمامه . ومع ذلك فلندخل ، ، .

بحثت عن هذا الكلام في الترجمة فلم أجده ، وما أحسب أنه سقط في المطبعة سهواً أو خطأ !

العيب الثاني : أن ترجمته — على ضخامة ألفاظها ونخامة أساليبها وعلى مالها من روعة وجمال — ليست دقيقة ولا حسنة الأداء ، وقد يكون لحافظ في ذلك رأيه . ولكنى أرى أن ليس للترجمة قيمتها حقاً إلا إذا كانت صورة صحيحة للأصل . وليست ترجمة حافظ كذلك . ولست أريد أن أطيل ، وإنما أضرب مثلاً واحداً . قال حافظ :

« قد منا بين يدي القارىء ما كان من أمر «جان فليجان» منذ ابتد ذلك الغلام قطمته الفضية ، وقد رأى كيف حال هذا الرجل إلى رجل آخر . وكيف فعلت في نفسه كلمات العابد (كذا ؟) أفاعيلها فأختطفته إلى المعبود وأخرجته من مسлах الشرّة (كذا ؟) والضعيفة وأسكنته في إهاب من الفضيلة ، .

وقال فيكتور هوغو :

« ليس لدينا إلا شيء قليل نضيفه إلى ما عرف القارىء من أمر «جان فليجان» منذ كان بينه وبين «بني جارفيه» ،

ما كان . فقد رأيت أنه أصبح رجلاً آخر منذ ذلك الوقت .
فأنفذ ما أراد الأسقف أن يصنع به ، صنع بنفسه شيئاً
أكثر من التحويل ، خلقها خلقاً جديداً ،

ولو أننا ذهبنا في المقابلة بين الأصل والترجمة لأظهرنا
خلافاً شديداً جداً بين الشاعرين : الفرنسي والعربي .
ولكننا قد أطلنا فالتخصر .

نأخذ حافظاً بعيوب ثلاثة : الاسراف في اللفظ الغريب ،
والاعراض التام عن بعض النصوص . والتشويه الذي
يختلف قوة وضعفاً لبعضها الآخر . وهذه العيوب الثلاثة
خطرة جداً ، ولكن حافظاً يستطيع أن يحتملها فليس يمكن
أن نقرأ لا أقول ترجمته ، بل أقول كتابه دون أن
نستفيد .